أثر البلاغة النبوية
في نفوس المدعوين
ومدى استفادة الدعاة من ذلك

د. حسين حامد عمر الديب
مدرس الدعوة والثقافة الإسلامية
كلية أصول الدين بالقاهرة

أثر البلاغة النبوية في نفوس المدعوين ومدى استفادة الدعاة من ذلك

حسين حامد عمر الديب

الدعوة والثقافة الإسلامية – كلية أصول الدين بالقاهرة – جامعة الأزهر

البريد الإليكتروني : osama_1425@yahoo.com

ملخص البحث :

لقد أوتي النبي صلى الله عليه وسلم جوامع الكلم ، فبلغ في الفصاحة والبلاغة الغاية والنهاية ، وملك زمام البلاغة والبيان ، وأخذ بناصية القول بما لا مزيد عليه ، مما كان له بالغ الأثر في نفوس مستمعيه ، فما عرفت الدنيا ولن تعرف له مثيلا ، فأبهر العقول ، وأخذ بمجامع القلوب ، فكان إذا تكلم أسمع ، وإذا وعظ أقنع ، وإذا خطب أبدع ، فتراه يخاطب الناس على قدر عقولهم ، ويراعي حال المستمع ومنزلته ، يوجز في مقام الإيجاز ، ويطنب في مقام الإطناب ، وفي الإيجاز والإطناب يكون قد بلغ المراد ، فلا الإيجاز أخل ببلاغته ، ولا الإطناب يمله المتلقي ، بل في كل حال تتشنف بسماعه الأذان ، وتهوي إليه الأفئدة ، وتشرئب إليه الأعناق متأثرة بما يقوله – صلى الله عليه وسلم – من سحر البيان فهو القائل " إن من البيان لسحرا " كل ذلك يتأتى منه على البديهة والسليقة ، فلا يميل إلى السجع والتشدق ، ولا إلى غريب القول ومستهجنه ، ولا يميل إلى التكلف فما هو من المتكلفين .

ولا تزال النفوس تتأثر ببلاغته – صلى الله عليه وسلم – ما بقيت الدنيا .

والدعاة إلى الله في كل زمان ومكان يقتبسون من نوره – صلى الله عليه وسلم – ويهتدون بهديه ، فيلزمهم أن يقفوا على جوانب من بلاغته؛ ليبلغوا للناس الدعوة في صورة قشيبة ،وفي ثوب براق حتى تؤتي الدعوة ثمرتها المرجوة وغايتها المنشودة .

الكلمات المفتاحية : البلاغة النبوية ، نفوس المدعوين ، الدعاة ، الفصاحة والبيان .

The Impact Of Prophetic Rhetoric On The Souls Of The Invited And The Extent To Which The Preachers Benefit From It

Hussein hamed omar el-deeb
Instructor of dawah and islamic culture at the faculty of fundamentals of religion in cairo
Email: osama_1425@yahoo.com

Abstract:
The Prophet, may God's prayers and peace be upon him, was given the most comprehensive of words, and in eloquence and eloquence he reached the goal and the end, and he took the reins of eloquence and eloquence, and he took the cornerstone of saying what there is no more to him, which had a great impact on the hearts of his listeners, I did not know the world and you will not know him like him, so he dazzled minds, And took the gatherings of hearts, So if he spoke, he listened, and if he preached, he was persuaded, and if he preached, he innovated, so you saw him addressing people according to their intellects, and taking into account the condition and status of the listener. The recipient is bored, but in every case, the call to prayer is rejoiced, the hearts are drawn to him, and the necks are drawn to him.Influenced by what he, may God's prayers and peace be upon him, says about the magic of eloquence, he is the one who says, "There is magic in eloquence." Souls are still affected by his eloquence - may God bless him and grant him peace - as long as the world remains. And the callers to God in every time and place quote from His light - may God's prayers and peace be upon him - and are guided by His guidance, so they have to stand on aspects of His eloquence; To convey to the people the da'wah in the form of a shashiba, and in a bright garment, until the da'wah yields its desired fruit and desired goal.

Keywords : Prophetic Rhetoric, The Souls Of The Invited, The Preachers, Eloquence And Eloquence.

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ به سبحانه من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾[1]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾[2]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١ ﴾[3]، [4]. **أما بعد:**

فإن أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدى هدى محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار[5].

وبعد:

فقد اختار الله نبيه محمدا ﷺ من العرب وهم أمة البلاغة، وأئمة الفصاحة؛ وأرباب البيان، تعنو لهم أزمة القول، وتنقاد لهم أعنة الكلام، وإذا كان الكلام

---

(١) سورة آل عمران: الآية رقم: (١٠٢).

(٢) سورة النساء الآية رقم: (١).

(٣) سورة الأحزاب: الآيتان (٧٠، ٧١).

(٤) هذه الخطبة تسمى خطبة الحاجة، وقد أخرجها أبو داود: كتاب النكاح: باب في خطبة النكاح: (٤٥٦/٣، ح/٢١١٨)، والترمذي: كتاب النكاح: باب ما جاء في خطبة النكاح، (٤٠٥/٣، ح/١١٠٥)، وابن ماجه: كتاب النكاح: باب خطبة النكاح، (٨٧/٣، ح/١٨٩٢)، وأحمد: (٢٦٤/٦، ح/٣٧٢١)، والنسائي في الكبرى: كتاب الجمعة، كيف الخطبة، (٢٧٨/٢، ح/١٧٢١)، جميعا من حديث ابن مسعود ﷺ.

(٥) أخرجه الإمام مسلم: كتاب الجمعة: باب تخفيف الصلاة والخطبة، (٤١٨/٣ ح/٨٦٧)، والنسائي: كتاب صلاة العيدين: باب كيف الخطبة، (١٨٨/٣، ١٨٩)، وابن ماجه في السنن: كتاب المقدمة: باب اجتناب البدع والجدل: (٤٦/١، ٤٧ح٤٥) -جميعهم عن جابر بن عبد الله ﷺ.

صنعتهم التي بها يعرفون، والبلاغة وصفهم التي فيها لا يمارون؛ فلا جرم أن كان الرسول ﷺ أسمى منهم بيانا، وأبلغ منهم منطقا ،وقد تضافرت لشخصيته ﷺ أقوى العوامل، وتعاونت على إذكائها أبلغ المؤثرات، إذ نشأ وتقلب في أفصح القبائل وأصحها لهجة، وأخلصها منطقا، وأعذبها بيانا، وأرهفها جنانا، وأقومها سليقة(١).

وكان ذلك كله إعدادا من الله لنبيه ﷺ، لينهض بالدعوة الخاتمة، والرسالة الكاملة، وكذلك كان فصيح المنطق، سهل الأسلوب، مونق العبارة، رائع الحكمة، قوي الحجة، بليغ التأثير في النفوس، يحس المرء لكلامه حلاوة العسل، ويستشعر اللذة الفنية التي تهز النفوس، وتثير الأحاسيس، وتأخذ بمجامع القلوب. إذا تكلم خشعت القلوب من جلال العظة، وإذا خطب انقطعت الشبه لبلاغة الحجة، وامتلأت النفوس اقتناعا بالحقيقة، ورضا برأيه، وقد أردت أن أكتب بحثي هذا عن **أثر البلاغة النبوية في نفوس المدعوين ومدى استفادة الدعاة من ذلك،** وقد قسمته إلى تمهيد وأربعة مباحث وخاتمة وثبت بأهم المصادر والمراجع كما يلي :

التمهيد: وفيه تعريف البلاغة.

– المبحث الأول: أثر البلاغة النبوية في نفوس المدعوين في الجانب العقدي.

– المبحث الثاني: أثر البلاغة النبوية في نفوس المدعوين في الجانب العبادي

– المبحث الثالث: أثر البلاغة النبوية في نفوس المدعوين في الجانب الاجتماعي .

– المبحث الرابع : أثر البلاغة النبوية في نفوس المدعوين في الجانب السياسي .

– الخاتمة .

(١) في قصة رضاع النبيﷺ في بنى سعد، يراجع: السير والمغازي لابن إسحاق: (٤٩)، السيرة النبوية لابن هشام: (١٦٢/١).

تمهيد

جاء في مقاييس اللغة مادة (بَلَغَ) الْبَاءُ وَاللَّامُ وَالْغَيْنُ أَصْلٌ وَاحِدٌ وَهُوَ الْوُصُولُ إِلَى الشَّيْءِ تَقُولُ بَلَغْتُ الْمَكَانَ، إِذَا وَصَلْتَ إِلَيْهِ، وَقَدْ تُسَمَّى الْمُشَارَفَةُ بُلُوغًا بِحَقِّ الْمُقَارَبَةِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ (١) وَمِنْ هَذَا الْبَابِ الْبُلْغَةُ مَا يُتَبَلَّغُ بِهِ مِنْ عَيْشٍ، كَأَنَّهُ يُرَادُ أَنَّهُ يَبْلُغُ رُتْبَةَ الْمُكْثِرِ إِذَا رَضِيَ وَقَنَعَ، وَكَذَلِكَ الْبَلَاغَةُ الَّتِي يُمْدَحُ بِهَا الْفَصِيحُ اللِّسَانِ، لِأَنَّهُ يَبْلُغُ بِهَا مَا يُرِيدُهُ، وَلِي فِي هَذَا بَلَاغٌ أَيْ كِفَايَةٌ (٢).

والبلاغة كما فسَّرها أهل الفن: هي موافقة الكلام مقتضى الحال، مع الفصاحة والإيجاز، وما أبلغ تعبير القدماء من أعلام الأمة إذ قالوا إنها: بلوغ دقيق المعاني بجليل الكلام.

فقد سأل رَجُلٌ الشَّافِعِيّ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، مَا الْبَلَاغَةُ؟، فقال: الْبَلَاغَةُ أَنْ تَبْلُغَ إِلَى دَقِيقِ الْمَعَانِي بِجَلِيلِ الْقَوْلِ، فسأله: فَمَا الْإِطْنَابُ؟، فقال: الْبَسْطُ لِيَسِيرِ الْمَعَانِي، فِي فُنُونِ الْخِطَابِ، فسأله: فَأَيُّمَا أَحْسَنُ عِنْدَكَ الْإِيجَازُ أَمْ الْإِسْهَابُ؟، فقال: لِكُلٍّ مِنَ الْمَعْنَيَيْنِ مَنْزِلَةٌ، فَمَنْزِلَةُ الْإِيجَازِ عِنْدَ التَّفَهُّمِ فِي مَنْزِلَةِ الْإِسْهَابِ عِنْدَ الْمَوْعِظَةِ (٣).

قال ابن الأعرابي: قال معاوية بن أبي سفيان لصحّار بن عياش العبديّ . ما هذه البلاغة التي فيكم؟ قال: شيء تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا. فقال له رجل من عرض القوم: يا أمير المؤمنين، هؤلاء بالبسر والرطب، أبصر منهم بالخطب. فقال له صحار: أجل والله، إنا لنعلم أن الريح لتلقحه، وأن البرد ليعقده، وأن القمر ليصبغه، وإن الحر لينضجه، وقال

(١) سورة الطلاق من الآية :٢ .

(٢) مقاييس اللغة لابن فارس ١ / ٣٠٢ .

(٣) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي ٢/٦٦.

له معاوية: ما تعدون البلاغة فيكم؟ قال: الإيجاز. قال له معاوية: وما الإيجاز؟ قال صحار: أن تجيب فلا تبطئ، وتقول فلا تخطئ، فقال له معاوية: أو كذلك تقول يا صحار؟ قال صحار: أقلني يا أمير المؤمنين، ألا تبطئ ولا تخطئ.

قال المفضل بن محمد الضبي: قلت لأعرابي منا: ما البلاغة؟ قال لي: الإيجاز في غير عجز، والإطناب في غير خطل. قال ابن الأعرابي: فقلت للمفضل: ما الإيجاز عندك؟ قال: حذف الفضول، وتقريب البعيد.

قال ابن الأعرابي، قيل لعبد الله بن عمر: لو دعوت الله لنا بدعوات، فقال: اللهم ارحمنا وعافنا وارزقنا! فقال له رجل: لو زدتنا يا أبا عبد الرحمن. فقال: نعوذ بالله من الإسهاب(١).

يقول الأديب الرافعي رحمه الله: ولقد رأينا هذه البلاغة النبوية العجيبة قائمة على أن كل لفظ هو لفظ الحقيقة لا لفظ اللغة، فالعناية فيها بالحقائق، ثم الحقائق هي تختار ألفاظها اللغوية على منازلها؛ وبذلك يأتي الكلام كأنه نطق للحقيقة المعبر عنها، والكلمة الصادقة تنطق مرة واحدة؛ فصورتها اللغوية لا تكون إلا صريحة منكشفة عن معناها المضيء كأنما ألقي فيها النور.

وهو معلوم أنه ﷺ لا يتكلف القول، ولم يكتب ولم يؤلف، ومع هذا لا تجد في بلاغته موضعًا يقبل التنقيح، أو تعرف له رقة من الشأن كأنما بين الألفاظ ومعانيها في كل بلاغته مقياس وميزان، أو كأن هذه البلاغة تنبثق بالكلام على طبيعة عاملة فيه بقواها الدائبة الثابتة، ففنها الجميل هو التركيب الذي تجيء فيه كما ترى الشجر مثلًا كاسيًا من ورقه وزهره، فأنت منه بإزاء عمل جميل لأنك بإزاء حقيقة طبيعية قد انفردت في ذاتها، ومعنى انفرادها في ذاتها أنها كذلك هي، فليس فيها موضع لشيء غير ما هو فيها.(٢).

(١) ينظر : البيان والتبيين للجاحظ ٩٩/١ .

(٢) السمو الروحي الأعظم والجمال الفني في البلاغة النبوية (ص: ٥٤).

ولقد اعترف العدو قبل الصديق ببلاغة النبي ﷺ، بداية من رضاعته في بني سعد وهم من أفصح العرب لساناً، وأبلغهم بيانا؛ فتلقى النبي ﷺ اللغة منهم غضة طرية(١)، ناهيك عن أنهم كانوا يرتضونه حكما بينهم قبل الإسلام، فهو ﷺ –كما شهد به أعداؤه(٢)– الرجل المفوه وصاحب الكلمة المسموعة، والأخلاق الرفيعة، كما حدث مثلا في قصة الحجر الأسود(٣)، وقد بلغت فصاحة النبي ﷺ وسداد رأيه كل مبلغ، فقد كان يحضر الأحلاف والاجتماعات المهمة(٤)، التي كانت تعقد في الجاهلية لنبذ الرذائل وإقرار الفضائل، ونصرة المظلوم ومداواة المكلوم، وجمع الكلمة، ونبذ الفرقة، ومعلوم من واقع الحياة في كل زمان ومكان –سواء أكان قبل الإسلام أم بعده– أنه لا يحضر مثل هذه الأحلاف قديما، وما يجاريها من لجان فض المنازعات حديثا وغيرها، إلا ذوو الرأي وأولو الألباب، فقد كان كلامه ﷺ قبل الإسلام يأخذ بتلابيب أهل اللغة وأرباب الفصاحة، فكيف بعد أن أوحى الله إليه؟(٥).

(١) في قصة رضاع النبيﷺ في بنى سعد، يراجع: السير والمغازي لابن إسحاق: (٤٩)، السيرة النبوية لابن هشام: (١٦٢/١).

(٢) كما شهد به أبو سفيان قبل إسلامه، عند هرقل، والحديث أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحى، كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ؟، (٨/١، ح/٧)،

(٣) يراجع: السيرة النبوية لابن هشام: (١/ ١٩٦).

(٤) كحلف الفضول وغيره من الأحلاف التي حضرها النبي ﷺ قبل الإسلام: السيرة النبوية لابن هشام: (١٣٤/١)، السيرة النبوية لابن كثير: (٢٥٨/١).

(٥) ينظر: دلائل توثيق السنة النبوية –دراسة مقارنة– بطرق التوثيق العالمية، رسالة دكتوراه إعداد الدكتورة/ شاريهان حمدي عبد السلام أبو عيش – مدرس الحديث وعلومه بجامعة الأزهر– ص ٢٧٥.

المبحث الأول

أثر البلاغة النبوية في نفوس المدعوين في الجانب العقدي

تعرض المستضعفون من الصحابة للاضطهاد الشديد من قبل المشركين، فنكلوا بهم وساموهم سوء العذاب، ولا شك أن النفوس في هذا الكرب العظيم تحتاج إلى اليد الحانية التي تربت عليها، وتخفف من آلامها، وتشد من أزرها، وتعينها على الصبر والتحمل، ومن كرسول الله ﷺ رؤيته تبعث على الطمأنينة، وكلامه يبعث على الثبات، فعَنْ خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ قَالَ: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ فَقُلْنَا: «أَلاَ تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلاَ تَدْعُو لَنَا فَقَالَ: قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهَا فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ وَيُمَشَّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرُ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لاَ يَخَافُ إِلاَّ اللَّهَ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»(١).

فانظر – رحمك الله– إلى هذه الكلمات، فإنه لو اجتمعت قوى الكون فجاءت يشد بعضها بعضًا فنزلت في عبارة من الكلام لتملأ نفوس المؤمنين بقوتها لما وُضعت إلا هذا الوضع من هذا التمثيل بأمشاط المسامير وأسنان الْمِنْشَار في عظم الإنسان الحي ولحمه.

وظاهر التمثيل على ما رأيت من العجب، ولكنَّ له باطنًا أعجب من ظاهره، وهو البلاغة كل البلاغة والبيان حق البيان.

فإنما يريد ﷺ أن الحديد لا يأكل ولا يمزع من أولئك الأقوياء بإيمانهم عظمًا ولحمًا وعصبًا، بل هو حديد يأكل حديدًا مثلَهُ أو أشدَّ منه، فإنَّ للروح المؤمنة المسلطة على جسمها قوةً تصنع هذه المعجزة، فيمر الحديد في العظم واللحم والعصب يسلبها الحياة، ولكنها تسلبه شدته وجلده وصبره!

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٤/ ٢٠١، ح٣٦١٢).

وكل ما جاء من التمثيل في كلامه ﷺ ينطوي فيه من إبداع الفن البياني وإعجازه ما يفوت حدود البلغاء(١).

ومما يجب أن يستفيده الدعاة إلى الله من البلاغة النبوية في هذا الحديث :

أولا: الصبر عَلَى مقاساة الشدائد فِي الدعوة إلى الله تعالى، وذلك عن طريق سرد القصص الصحيحة، ومعلوم ما للقصة من أهمية في استمالة المدعوين فتمتاز القصة بأنها تصور نواحي الحياة فتعرض لك الأشخاص وحركاتهم وأخلاقهم وأفكارهم، واتجاهات نفوسهم، وبيئتهم الطبيعية والزمنية، تعرضهم عليك بعرض أعمالهم وتصرفاتهم ونقاشهم، فإذا رأيت هذه التصرفات والأعمال، ومضيت مع الحوار والنقاش، عرفت ما يستكن في النفوس من طباع، وما يهجس فيها من خواطر، وانشرح صدرك لأهل الخير منهم، وضقت ذرعا بذوي النفوس المظلمة، والوسائل الملتوية، حتى لكأنك تراهم رأي العين، وتسمع منهم سمع الأذن، وتعاشرهم وتحيا بينهم .

وتمتاز القصة كذلك بأن النفوس تميل إليها، فغريزة حب الاستطلاع تعلق عين السامع وأذنه وانتباهه بنسق القصصي البارع، استشرافا لمعرفة ما خفي من بقية الأنباء.

والقصة بهاتين الميزتين من خير الوسائل التي يتوسل بها الداعية لإبلاغ دعوته إلى أعماق القلوب.

فهي بالميزة الأولى تعرض هذه الدعوة في صورة عملية حية تحرك الوجدان ، وترفع نبض المشاعر، وهي بالميزة الثانية تجعل النفوس أوعية مفتوحة يصب فيها الداعية ما يشاء (٢).

ثانيا: ومما يستفيده الدعاة أيضا من بلاغة هذا الحديث :استخدام

(١) السمو الروحي الأعظم والجمال الفني في البلاغة النبوية (ص: ٥٥).

(٢) انظر تذكرة الدعاة للشيخ / البهي الخولي ص٤٤.

أسلوب البشارة في الدعوة إلى الله فقد قال الله تعالى واصفا نبيه محمدا ﷺ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾ (١).

يقول الفخر الرازي: " فيه ترتيب حسن، وذلك من حيث إن النبي ﷺ أرسل شاهدًا بقول لا إله إلا الله، ويرغب في ذلك بالبشارة، فإن لم يكف ذلك يرهب بالإنذار "(٢).

ولما عرض النبي ﷺ الدعوة على قومه استخدم معهم أسلوب البشارة بالاستخلاف في الأرض إن هم اتبعوا دعوته، وهو أمر يدركه العربي القديم الذي كان يأبى الضيم، وينشد العزة والكرامة، روى الإمام أحمد بسند صحيح "أن النبي ﷺكان يخاطب الناس في ذي المجاز: يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا"(٣).

ويقول: " كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم: تقولون لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه ".(٤)، وقال ﷺ عن الرسل جميعا ﴿ وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ ﴾ (٥)، ولما كانت النفوس غالبًا لا تقبل الحق إلا بما تستعين به من حظوظها التي هي محتاجة إليها، كان ﷺ يعرض دعوته بالترغيب تارة، وبالترهيب أخرى، وذلك لما فيهما من صلاح للقلوب فترغب فيما ينفعها، وترهب مما يضرها(٦).

وهذا أسلوب من الأساليب الدعوية المهمة حيث تراعى فيه طبيعة النفس

---

(١) سورة الأحزاب ، الآيتان : ٤٥ ، ٤٦ .

(٢) الفخر الرازي ، التفسير الكبير ٢٥ / ٢١٦ ، ٢١٧ .

(٣) أخرجه أحمد: (١٤٨/٢٧،ح/١٦٦٠٣) وإسناده صحيح، رجاله ثقات. وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد، وقال: رجاله رجال الصحيح. [مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: (٦/ ٢٢)].

(٤) السيرة النبوية لابن كثير ١٢٤/٢.

(٥) سورة الكهف من الآية :

(٦) انظر : ابن تيمية ، مجموع الفتاوى ٢٨ / ٣٦٦ .

البشرية المجبولة على محبة ما فيه نفعها ومصلحتها والإقبال عليه وصدق الله ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾(١).

أرأيت إلى قوله تعالى:﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(٢).

ولا يختلف اثنان على أن الاستخلاف في الأرض والتمكين فيها مطلب لكل الأمم والشعوب مهما اختلفت دياناتهم، وتعددت مذاهبهم، ولذلك قال موسى لقومه في بادئ الدعوة وقد ضجروا من تعذيب فرعون لهم ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾(٣).

ولا يخفى الأسلوب البلاغي في قوله ﷺ " والله ليتمن هذا الأمر " وهو أسلوب التوكيد المؤكد بالقسم واللام ونون التوكيد، وفيه قطع وساوس الشيطان عن النفس المؤمنة إذا ما ادلهمت الأمور، وتتابعت الخطوب، فالنصر قادم لا محالة، والتمكين لهذا الدين لا مراء فيه، وهو ما يجب أن يحرص عليه الدعاة إلى الله تعالى في دعوة الناس، فقد أخبر النبي – ﷺ– بظهور الدين على الأديان الباطلة، وظهوره على فتن الكفرة المتمردين، بحيث لو سار راكب من المسلمين من صنعاء إلى حضرموت لكان آمنًا غيرُ خائفٍ سوى الله تعالى، أو الذئبِ على غنمه، ولو كان بينهما مسافة بعيدة؛ يعني: سيزول أذى المشركين عن المسلمين؛ لنكبتهم وقوة المسلمين .

(١) سورة الصف الآية : ١٣ .

(٢) سورة النور، الآية ٥٥ .

(٣) سورة الأعراف من الآية : ١٢٩.

المبحث الثاني

أثر البلاغة النبوية في نفوس المستمعين في الجانب العبادي

التشبيه وضرب الأمثال من الأساليب المؤثرة في النفس البشرية؛ لأنه يقرّب المعاني، ويوصلها إلى ذهن السامع، ويكشف ما بها من غموض بتصوير الأمر المعنوي بأمر حسي يظهر فيه المشبه به صورة حسية للمشبَّه، والداعية لا بد له من ذلك في دعوته، وفي الكتاب والسنة من الأمثال المضروبة ما فيه بلاغ للناس ، وقد بين تعالى أن هذه الأمثال إنما هي للتذكر والتفكر، والعظة والعلم، قال تعالى: ﴿وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾[(١)]. وأوضح سبحانه أن الذين يفهمون هذه الأمثال وما ترمي إليه هم العالمون من الناس فقال: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَالُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ [(٢)]، وضرب النبي ﷺ الأمثال في دعوته، ومن ذلك: عَن أَبِي مُوسَى، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ:ﷺ " مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ، كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا فَقَالَ: رَأَيْتُ الجَيْشَ بِعَيْنَيَّ، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ العُرْيَانُ، فَالنَّجَا النَّجَاءَ، فَأَطَاعَتْهُ طَائِفَةٌ فَأَدْلَجُوا عَلَى مَهْلِهِمْ فَنَجَوْا، وَكَذَّبَتْهُ طَائِفَةٌ فَصَبَّحَهُمُ الجَيْشُ فَاجْتَاحَهُمْ " [(٣)]، قال ابن حجر: وهو عند أحمد أيضا بسند جيد من حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه قال خرج النبي ﷺ ذات يوم فنادى ثلاث مرات أيها الناس مثلي ومثلكم مثل قوم خافوا عدوا أن يأتيهم فبعثوا رجلا يترايا لهم فبينما هم كذلك إذ أبصر العدو فأقبل لينذر قومه فخشي أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه فأهوى بثوبه أيها الناس أتيتم ثلاث مرات وأحسن ما فسر به الحديث من الحديث وهذا كله يدل على أن العريان من التعري وهو المعروف في الرواية

(١) سورة إبراهيم من الآية: ٢٥ .

(٢) سورة العنكبوت الآية : ٤٣ .

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب الانتهاء عن المعاصي، (٨/ ١٠١، ح/٦٤٨٢).

وحكى الخطابي أن محمد بن خالد رواه بالموحدة قال فإن كان محفوظا فمعناه الفصيح بالإنذار لا يكنى ولا يورى يقال رجل عريان أي فصيح اللسان[1].

ومن ذلك أيضا : تشبيهه ﷺ الجليس الصالح بحامل المسك، والجليس السوء بنافخ الكير، فعَنْ أَبِى مُوسَى عَنِ النَّبِي ﷺ قَالَ " إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوْءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً "[2].

وهذا من حكمته ﷺ لأنه جمع بين الترغيب والحث على مجالسة من يستفاد من مجالسته في الدين والدنيا، وحذر من مجالسة من يتأذى بمجالسته فيهما، وهذا كثير في السنة . إن الرسول ﷺ بهذا المثال المحسوس أراد أن يبين تلك الآثار التي يمكن أن يتركها الجليس الصالح – والذي يمثل القدوة الحسنة – فيمن يجالسه، فالمسلم إذا اختار جليسه الصالح ثم اقتدى به يكون قد ضمن لنفسه الاقتداء بقدوة صالحة .

ولو أردنا أن نقف على بعض الآثار التي يتركها الجليس الصالح فيمن يجالسه لوجدنا أنه يأمر جليسه بالخير والمعروف، وينهاه عن الشر، ويسمعه القول الصادق، والعلم النافع، ثم هو يعرفك عيوب نفسك، ويشغلك عن ما لا يعنيك، وهو دائماً يدلك على الخير ويرغبك فيه، ويحذرك من الشر، وما يزال معك على هذا الحال حتى يكون فعلاً كبائع المسك الذي لا يمكن أن ينالك منه إلا ما كان طيباً .

وهكذا يكون كل قدوة في الخير لا يصدر عنه إلا ما كان خيراً يفيض على عقول الناس كما تفوح رائحة المسك من بسطة بائعه، وقد ينحرف الإنسان في سلوكه ويدبر أموراً مضرة، ويحفر حفراً للشر يريد بها غيره .

(١) انظر فتح الباري لابن حجر: (١١/ ٣١٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب في العطار وبيع المسك، (٣/ ٦٣، ح/ ٢١٠١).

فيصير عندئذ قدوة سيئة يحتذي حذوه كل من فسدت طويته، وساء خلقه، وفي هذا نرى أرباب الشر في كل مكان يتزعمهم أقواهم تدبيراً، ويسمى هذا النوع بالقدوة السيئة ، وبالطبع فإن القدوة السيئة هو على نقيض ما هو عليه القدوة الصالحة الذي يتأسى بشمائل الرسول ﷺ والقدوة السيئة يتمثل أخلاق الشياطين من الجن والإنس.

والداعية لا شك يدرك أنه قدوة شاء ذلك أم أباه، فإذا كان الأمر كذلك فلا بديل أبداً في أن يختار النوع الأول وهو أن يكون قدوة صالحة، وبذلك يضمن ألا يصدر عنه في تصرفاته وأخلاقه إلا ما يخدم دينه ودعوته.

ومن هذا نخلص إلى القول بأن أنواع القدوة لا تخرج عن نوعين قدوة صالحة وقدوة سيئة يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله:" فالأسوة نوعان: أسوة حسنة، وأسوة سيئة، فالأسوة الحسنة، في الرسول ﷺ ، فإن المتأسِّي به، سالك الطريق الموصل إلى كرامة الله، وهو الصراط المستقيم، وأما الأسوة بغيره، إذا خالفه، فهو الأسوة السيئة، وهذه الأسوة الحسنة، إنما يسلكها ويوفق لها، من كان يرجو الله، واليوم الآخر، فإن ما معه من الإيمان، وخوف الله، ورجاء ثوابه، وخوف عقابه، يحثه على التأسي بالرسولﷺ "(١).

إن أصول القدوة الصالحة التي يكون بها الداعية قدوة طيبة لغيره ترجع إلى أصلين كبيرين هامين هما: حسن الخلق، وموافقة العمل للقول، فإذا تحقق هذان الأصلان حسنت سيرته، وأصبحت دعوة صامتة إلى كل خلق إسلامي جميل، وإن فاته هذان الأصلان ساءت سيرته وصارت مثلاً سيئاً يُنَفّر الناس من حوله.

فأما الأصل الأول وهو حسن الخلق، فعلى الداعية أن يتمثل كل الأخلاق الإسلامية الحميدة مثل الصدق، الأمانة، الصبر، الرحمة، التواضع،

(١) تفسير السعدي – سورة الأحزاب آية-: ٢١.

المخالطة التي تتخللها المودة والمحبة، العطف، الإيثار والرفق وما إلى ذلك.

وأما الأصل الثاني هو موافقة العمل للقول فإن على القائد أيضاً أن يحذر كل الحذر أن تخالف أفعاله أقواله فإن النفس مجبولة على عدم الانتفاع بكلام من لا يعمل بعلمه ولا يوافق فعله قوله ولهذا حذرنا الله عن ذلك بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ (١).

ومن الأمثلة العظيمة التي ضربها الأنبياء لقومهم ما حدث به النبي ﷺعن يحيى بن زكريا عليهما السلام : فعن الحارث الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: "إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بهن، وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، فكأنه أبطأ بهن، فأوحى الله إلى عيسى، إما أن يبلغهن أو تبلغهن، فأتاه عيسى فقال له: إنك أمرت بخمس كلمات أن تعمل بهن، وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، فإما أن تبلغهن وإما أن أبلغهن ، فقال له: يا روح الله ، أخشى إن سبقتني أن أعذب أو يخسف بي، فجمع بني إسرائيل في بيت المقدس، حتى امتلأ المسجد ، فقعد في الشرفات، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن، وآمركم أن تعملوا بهن: أولهن أن تعبدوا الله، لا تشركوا به شيئًا، فإن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبدا من خالص ماله بذهب أو ورق، ثم أسكنه دارا فقال : اعمل وارفع إلي، فجعل العبد يعمل، ويرفع إلى غير سيده، فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك؟ وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه، ولا تشركوا به شيئا، وآمركم بالصلاة، وإذا قمتم إلى الصلاة فلا تلتفتوا، فإن الله عز وجل يقبل بوجهه على عبده ما لم يلتفت، وآمركم بالصيام، ومثل ذلك كمثل رجل معه صرة مسك في عصابة، كلهم يجد ريح المسك، وإن خلوف فم الصائم أطيب

(١) سورة الصف الآيتان :٢ ، ٣ .

عند الله من ريح المسك، وآمركم بالصدقة، ومثل ذلك كمثل رجل أسره العدو، فشدوا يديه إلى عنقه، وقدموه ليضربوا عنقه، فقال لهم: هل لكم أن أفتدي نفسي منكم ؟ فجعل يفتدي نفسه منهم بالقليل والكثير، حتى فك نفسه ، وآمركم بذكر الله كثيرا ، ومثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو، سراعا في أثره، فأتى حصنا حصينا، فأحرز نفسه فيه، وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان، إذا كان في ذكر الله تعالى، وأنا آمركم بخمس أمرني الله بهن: الجماعة، والسمع، والطاعة، والهجرة ، والجهاد في سبيل الله، فإن من فارق الجماعة قيد شبر، فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه، إلا أن يراجع، ومن دعا بدعوة الجاهلية فهو من جثاء جهنم ، وإن صام وزعم أنه مسلم، فادعوا بدعوة الله، التي سماكم بها المسلمين المؤمنين عباد الله"(١).

– وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهَرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسًا، مَا تَقُولُ: ذَلِكَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ " قَالُوا: لاَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ شَيْئًا، قَالَ: «فَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ، يَمْحُو اللَّهُ بِها الخَطَايَا"(٢)

فقولهﷺ: (بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء؟) درن الإنسان هو القاذورات التي تكون عليه والأوساخ التي تلطخ بدنه وثوبه، فلو أن الإنسان كل يوم يغتسل في نهر خمس مرات، فلن يبقى شيء من القاذورات على بدنه أو على ثوبه، وكذلك الصلوات الخمس، كما قال النبيﷺ: (فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا)، كأن الخطايا والذنوب تلوث بدن العبد، بل تلوث قلبه، ولا تزال الذنوب نكتاً سوداء على قلب

(١) أخرجه أحمد: (٢٨/ ٤٠٤، ح/١٧١٧٠)، وإسناده حسن؛ فيه موسى بن خلف العمي –بتشديد الميم– ، أبو خلف البصري، صدوق عابد له أوهام من السابعة. تقريب التهذيب لابن حجر: (٥٥٠، ت/٦٩٥٨).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب: الصلوات الخمس كفارة، (١/ ١١٢)ح/٥٢٨).

العبد، نكتة وراء أخرى إلى أن يسود القلب بالكلية، فهذه الصلوات الخمس تزيل وتمحو عنه هذه الذنوب واللطخ التي سودت قلبه وبدنه وعمله. (١).

– وحديث جابر بن عبد الله عند مسلم كحديث أبي هريرة رضي الله عنه المتفق عليه، ففي حديث جابر قال ﷺ: "مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ كَمَثَلِ نَهْرٍ جَارٍ، غَمْرٍ عَلَى بَابِ أَحَدِكُمْ، يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ". قَالَ: قَالَ الْحَسَنُ: "وَمَا يُبْقِي ذَلِكَ مِنَ الدَّرَنِ؟" (٢)، والنهر هنا على باب البيت؛ لأنه لو كان بعيداً سيتسخ في طريقه إلى البيت، وهذا النهر جارٍ؛ لأن النهر الراكد يمتلئ بالأتربة والغبار والنباتات والأعشاب التي تلوث الإنسان ولا تنظفه، والنهر الجاري يكون عميقاً ويكون سطحياً، وإذا كان هذا النهر الجاري عميقاً وغمراً وماؤه كثير وفي باب أحدكم فلا يمكن أن يكون ملوثاً.

فالنبي ﷺ يقول لنا: إن هذا النهر الجاري لو أنك تغتسل فيه كل يوم خمس مرات فلن يبقى شيء من القاذورات على بدنك أو ثوبك، قال: (فكذلك مثل الصلوات الخمس).

والتصوير البلاغي المستمد من المعاني الوضعية في اللغة العربية لهذا الحديث الشريف: تنوعت مصادره الجمالية، **فالصورة الأولى:** أوحت بها همزة الاستفهام "أرأيتم"؛ فقد أفادت معان كثيرة فوق المعنى الوضعي لها في اللغة، وهي الإجابة عن هذا السؤال منها: إثارة انتباه السامع لأهمية موضوع الصلاة والاستعداد لها بالطهارة والغسل، فهي عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين، لأنها تربية بدنية وروحية وأخلاقية واجتماعية.

ومنها: إفادة التقرير والثبوت، فليس المرادُ بالاستفهام الإجابة عن السؤال فحسب، بل المراد أيضًا أن هذه التربية البدنية، والقيم الخلقية والاجتماعية،

(١) ينظر: شرح رياض الصالحين – حطيبة (٩٨/ ٤، بترقيم الشاملة آليا).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا، وترفع به الدرجات، (٤٦٣/١، ح/٦٦٨).

أمر ثابت ومقرر، لمن أدى الصلاة بعد الاغتسال والوضوء خمس مرات في اليوم والليلة.

ومنها: أن الاستفهام بالهمزة وهي حرف مفرد يفيد التحقيق والحق والحقيقة، فلا مجال هنا للتردد والظن، مما تضمنته بنية "هل" من احتمال هذه الظنون، بمعنى أن من اغتسل خمسًا للصلوات المفروضة فجزاء فاعلها محو الذنوب حقًا وحتمًا لا مرد فيه، لأنه وعد الله، والله لا يخلف الميعاد، وكذلك الأمر في الاستفهام الثاني في قوله: "ما تقول ذلك يُبقي من درنه؟ "(١).

والصورة الثانية: في تخصيص الفعل المضارع دون الماضي والأمر، في قوله: "يغتسل، ويبقي، ولا يبقي، ويمحو" للدلالة على تكرار الغسل وتجدده واستمراره، وما أجمل العموم في لفظ "يغسل" غير المقيد، وبلاغته العميقة في تنوع الغسل، ليشمل جميع البدن أو معظمه، أو الاقتصار على أعضاء الوضوء فقط، وللدلالة على طهارة تجدد الأوساخ الحسية في البدن والثوب، والمعنوية من الطهارة النفسية والقلبية، فهو متجدد مع المرات الخمس، وللدلالة على استمرار محو الذنوب في يمحو بها الخطايا في العمر كله، لتجدد الغسل والصلاة المفروضة كل يوم، وكذلك الحال في الصور البلاغية المستمدة من وحي اللغة في "أرأيتم –ونهرًا– وكل يوم– ومن درنه– والصلوات الخمس– وبها الخطايا".

التصوير الفني في بلاغة الأسلوب البياني المستمد من ألوان الخيال، يتخذ منها صورًا حسية مؤثرة في النفس والقلب والعقل والوجدان. سواء أكانت صورًا جزئية أو كلية، فأما الصور الجزئية فمنها: المجازُ المرسلُ في "يغتسل فيه"، فليس المرادُ أن يغتسل في امتداد النهر كلِّه، يَسْبَحُ فيه من أوله إلى آخره، بل المراد في جزء منه، لتوحي الكلية في النهر بشمول الجسد وكمال

(١) التصوير النبوي للقيم الخلقية والتشريعية في الحديث الشريف (ص: ٣٤).

الطهارة، ومنها: الاستعارة المكنية في كل من "يبقى من درنه، ولا يبقى ..." فهي تفيد بأن النهر له تأثير فاعل كالإنسان؛ لتنظيف الجسد وتطهيره، فيشتمل على البدن خمس مرات، حتى لا يبقى من درنه شيء، ومنها: صورة الاستعارة التصريحية في "يمحو بها الخطايا" "من درنه شيء"، ومنها: صورة الاستعارة التصريحية في "يمحو بها الخطايا" لأن الخطايا أمر معنوي، والمحو لا يكون إلا للحسي، فجاءت في صورة محسوسة للتأكيد على غفرانها كلها، سواء الصغائر منها أو الكبائر على الأرجح عند العلماء، ومنها: صورة التشبيه التمثيلي فقد شُبِّه الاغتسال خمس مرات؛ لإزالة الأوساخ الحسية والنفسية بأداء الصلوات الخمس، يمحو بها الذنوب، للتأكيد على تشريع الغسل والصلوات معًا، فهما مرتبطان بطاعة الله ومرضاته. وأما الصورة الكلية البديعة فقد وردت في أقصوصة طريفة ومثيرة، نسج فيها الخيال أحداثًا حسية ومشاهد حية، لتحريك العاطفة وإثارة العقل وتنشيط الوجدان واشتياق القلب، فجاءت في صورة حكاية جرت في العادة، وقامت مشاهدها المتنوعة فيما بين منزل مقام على نهر واسع ومتجدد، بجوار منازل أخرى، يغتسل المقيمون فيها كل يوم خمس مرات، في كل مرة يزيل الأوساخ من البدن والثوب، ثم يتبعها بالصلوات الخمس، ويدور الحوار بين شخصيات القصة، الراوي الذي سمع من الرسول ﷺ والمتحدث والسائل والمجيب، والمستمعون وهم كثيرون، يفكرون في السؤال ويحاولون الإجابة، كل ذلك في أحداث محسوسة، ومشاهد حية ومتحركة في قصة قصيرة بليغة [1].

١ – التصوير النبوي للقيم الخلقية والتشريعية في الحديث الشريف د. علي صبح (ص: ٨٤).

المبحث الثالث

أثر البلاغة النبوية في نفوس المدعوين في الجانب الاجتماعي

من حكمة الله تعالى في خلقه أن جعلهم متفاوتين في الدرجات ، فمنهم الغني ومنهم الفقير، ومنهم القوي ومنهم الضعيف، إلى غير ذلك وهو المشار إليه في قوله تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ﴾(١)، وقوله تعالى : ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (٢).

ومما ينبغي على الداعية ويتحتم عليه معرفته، أن يحيط علما بمكان الدعوة، أقصد القطر الذي يدعو إلى الله فيه، فيعرف وجهاء القوم فينزلهم منازلهم، ويعرف لهم قدرهم، بقطع النظر عن اتجاهاتهم وأفكارهم، حتى يسلم منهم أولا، وحتى يتسنى له القيام بدعوته ثانيا، وحتى يكسب ولاءهم في نفس الوقت .

والذي يطالع البلاغة النبوية بفهم وتدبر يدرك أن النبي ﷺاستخدم هذا الأسلوب في دعوته، فأنت تعرف ما لأبي سفيان بن حرب رضي الله عنه من مكانة في قومه وسؤدد في عشيرته، قبل الإسلام، وطالما أنه قد أسلم فإن الإسلام لا يبخسه مكانته، بل يزيدها ولا شك، فعن أبي هريرة قال : سئل رسول الله ﷺ: أي الناس أكرم ؟ فقال : " أكرمهم عند الله أتقاهم " قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : " فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله "، قالوا : ليس عن هذا نسألك قال : " فعن معادن العرب تسألوني ؟ "

(١) سورة الأنعام من الآية: ١٦٥.

(٢) سورة الزخرف الآية: ٣٢ .

قالوا: نعم قال : " فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا "[١]، ونفس أبي سفيان قد ألفت أن تكون دائما عالية، تروي كتب السنة أنه لما كان يوم الفتح جاء العباس بن عبد المطلب بأبي سفيان فأسلم بمر الظهران فقال العباس يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فلو جعلت له شيئا قال " نعم من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن"[٢].

وقد قام ﷺ على رأس المنافقين عبد الله بن أبي، واستغفر له إلى أن نهي عن ذلك بقوله تعالى: " ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾[٣]، فما السر في عنايته ﷺ بهذا الرجل ، وهو من أكبر أعداء الدعوة في عهدها المدني؟ يشير ابن حجر إلى السر في ذلك بقوله: "إنما فعل النبي ﷺ مع عبد الله بن أبي ما فعل لكمال شفقته على من تعلق بطرف من الدين، ولتطييب قلب ولده عبد الله الرجل الصالح ، ولتألف قومه من الخزرج لرياسته فيهم"[٤]، فقد كانوا يعدون له التاج قبل هجرة النبي ﷺ إلى المدينة، ولو تأملت رسائله ﷺ في الدعوة إلى الإسلام لوجدتها تصدر لمن لهم المكانة والتعظيم من قبل أقوامهم : "من محمد رسول الله ﷺ إلى عظيم الروم" [٥] والمراد من تعظمه الروم ، وتقدمه للرياسة عليها [٦] .

فدل ذلك على عنايته ﷺ بذوي المكانة والرياسة وتقديمهم في الدعوة والمخاطبة ، ويشير ابن تيمية– قدس الله سره – إلى نكتة في هذا الشأن فيقول" وطالب الرئاسة – ولو بالباطل – ترضيه الكلمة التي فيها تعظيمه وإن

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأنبياء، باب أم كنتم شهداء إذ حضر، (١٢٣٥/٣، ح/٣١٩٤).
(٢) أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب فتح مكة، (١٧٢/٥، ح/٤٧٤٢).
(٣) سورة التوبة، الآية : ٨٤.
(٤) فتح الباري: (٢٣٥/٩).
(٥) أخرجه البخاري ، كتاب التفسير ، باب تعالوا إلى كلمة سواء (٦٨ ح ٤٢٧٨) ح / ١٦٥٧).
(٦) فتح الباري لابن حجر: (٩ / ٨٦).

كانت باطلا، وتغضبه الكلمة التي فيها ذمه وإن كانت حقّا"[١]، فهذا يجري مجرى المعتاد المألوف لدى الناس، فإن ملك الروم معظم عند نفسه أولا ثم عند قومه ثانيا.

ومما يدل على عنايته ﷺ بهذا الجانب أنه كان يجزل العطاء لبعض ضعفاء الإيمان ممن لهم المكانة في أقوامهم ، ويعلل ذلك بقوله : « إنه رأس قومه ، فأنا أتألفهم به »[٢]، وهكذا فعل ﷺ في حنين ، وقد دانت له العرب فقد أجزل العطاء لبعض ذوي المكانة من الأشراف والسادة ، فقد روى البخاري – رحمه الله – عن عبد الله بن مسعود قال : « لما كان يوم حنين آثر النبي ﷺ أناسًا في القسمة: فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل ، وأعطى عيينة مثل ذلك، وأعطى أناسًا من أشراف العرب ، فآثرهم يومئذ في القسمة »[٣].

فآثر ﷺ هؤلاء السادة بهذا العطاء ترغيبًا لهم ولأقوامهم في الإسلام ، لما لهم من مكانة وسيادة تجعل أقوامهم تبعا لهم[٤].

فلا بدّ أن يكون الداعية لبقاً في اختيار عباراته حتى يكسب القلوب، ولا يُثير عليه الناس، ويظهر تقصيره قبل غيره، وأن يتواضع ويلتمس الستر من إخوانه، وأن يبادلهم الشعور، وأن يطلب منهم المشورة والاقتراح، وأن يعلم أن فيهم من هو أعلم منه، وأفصح وأصلح .

إن حسن التعامل مع الناس وحفظ قدرهم مما ينبغي على الداعية فعله أن يثني على أهل الخير والفضل، ويشكر من قدّم معروفاً، إذ بذلك الفعل يعرف الناس أن الداعية يقدرهم وأنه يحفظ الجميل، أما أن تترك صاحب

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٠ / ٥٩٩ .

(٢) فتح الباري: (١/ ١٤٤).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب فرض الخمس، باب ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه (ح/٢٩٨١) .

(٤) الفتح الرباني لأحمد البنا: (٦٢/٩).

الجميل بلا شكر والمخطئ بلا إدانة ولا تنبيه، فكأنك ما فعلت شيئاً !!.

فلا بد أن تقول للمحسن أحسنت وللمسيء أسأت، لكن بأدب، فكبار السن مثلا يُحبون منك أن تحتفي بهم ، وأن تعرف أن لهم حق سنّ الشيخوخة فعن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال:" ليس من أمتي من لم يجل كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا"(١)،

والعمدة في تعظيم العلماء، –وعلى رأسهم المحدثين نقلة السنة المطهرة– ما ورد عن النبي ﷺ، وصحبه الكرامﷺ، في توقير ذوى الفضل والسبق والعلم، فقد أوصى النبي ﷺ بالأنصار خيرا، ولا يخفى فضل الأنصار من ناحية حملهم الدين وتبليغه، فعن أنس بن مالك –رضي الله عنه–، عن النبي ﷺ، قال: "الأنصار كَرِشِي، وعَيْبَتِي(٢)، والناس سيكثرون، ويَقلون فاقبلوا من محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم"(٣)، وكذا كانت وصية عمر–ﷺ– قبل وفاته قائلا: (أُوْصِي الخليفة من بعدي بالمهاجرين الأولين خيرا؛ أن يعرف لهم حقهم، وأن يحفظ لهم حرمتهم، وأوصيه بالأنصار خيرا –الذين تبوؤا الدار والإيمان– أن يقبل من محسنهم، ويعفو عن مسيئهم)(٤)، وهذا لأنهم – المهاجرين والأنصار– سبقوا بالخيرات. ويَرْوِي أنسﷺ أن جرير بن عبد الله ﷺ كان يخدمه مع أنه أكبر منه سنا؛ لأن جريرا ﷺ لم ينس إكرام الأنصار لرسول الله ﷺ. يقول أنس بن مالكﷺ: خرجت مع جرير بن عبد الله البَجَلِيّ

(١) أخرجه أحمد: (٣٧ / ٤١٦/ح/٢٢٧٥٥)، وقال الهيثمي: إسناده حسن. [مجمع الزوائد (١/ ١٢٧)].

(٢) قوله كَرِشِي وَعَيْبَتِي: أي بطانتي وخاصتي قال القزاز: ضرب المثل بالكَرِش؛ لأنه مستقر غذاء الحيوان الذي يكون فيه نماؤه، ويقال لفلان كَرِش منثورة أي عيال كثيرة، والعَيْبَةُ: ما يحرز فيه الرجل نفيس ما عنده، يريد انهم موضع سره وامانته. [فتح الباري: (١٢١/٧)]

(٣) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب قول النبي ﷺ: "اقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم"، (٣٥/٥، ح/٣٨٠١).

(٤) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب قصة البيعة، والاتفاق على عثمان بن عفان وفيه مقتل عمر بن الخطاب –رضي الله عنهما–: (١٥/٥، ح/٣٧٠٠).

في سفر فكان يخدمني فقلت له: لا تفعل، فقال: "إني قد رأيت الأنصار تصنع برسول الله ﷺ شيئا، آليت أن لا أصحب أحدا منهم إلا خدمته"(١).

وأسند الخطيب عن يحيى بن عبد الملك الموصلي، قال: "رأيت مالك بن أنس غير مرة، وكان بأصحابه من الإعظام له والتوقير له، وإذا رفع أحد صوته صاحوا به" (٢). ويروى أنه لما حج الأوزاعي، لقيه سفيان الثوري، فَحَلَّ الحبل المقود به رأس بعيره، ووضعه على رقبته، ومشى وهو يقول: الطريق للشيخ(٣).

ومن بلاغة النبي ﷺ تكرار القول :

والتكرار وسيلة من وسائل التربية الحديثة وعلم النفس التي تهدف إلى إصلاح النفوس وتهذيب الأخلاق، وذلك كله من الأمور المهمة التي تؤكد بتكرار طلبها والحث عليها، كما هي العادة في عظائم الأمور، وكما قال الشاعر :

كرر وردد ذكرهم في مسمعي ..... فهم الشفا لتألمي وتوجعي(٤)

ولا شك في أن هذا نوع من الأساليب البلاغية في كلام النبي ﷺ وهو يهدف إلى تأصيل المعاني وتأكيدها في القلوب، فالغافل الذي لا يستيقظ إذا دعي مرة، ربما استيقظ إذا دعي أكثر من مرة، والعاقل قد تمر به صورة من الصور فلا يعي كل شيء فيها، بل يغفل عن بعض الجوانب فيها، فإذا تكرر عرضها عليه من زواياها المختلفة، ونواحيها المتنوعة، زاد يقظة وانتباها، وأحاط بها من كل جانب.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب في حسن صحبة الأنصار ﷺ، (١٩٥١/٤، ح/٢٥١٣).

(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع: (١٨٢/١).

(٣) مرآة الجنان وعبرة اليقظان: (٢٦٠/١).

(٤) دفاع عن القصة د/ علي نصر ص ٧٥ ، والبيت من كتاب نوادر الخلفاء المشهور بـ «إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس»للإتليدي ١٥٩/١ .

يقول المستشرق غوستاف لوبون: " للتكرار تأثير كبير في عقول المستنيرين، وتأثير أكبر في عقول الجماعات من باب أولى، والسبب في ذلك كون المكرر ينطبع في تجاويف الملكات اللاشعورية التي تختمر فيها أسباب أفعال الإنسان، فإذا انقضى شطر من الزمن نسي الواحد منا صاحب التكرار، وانتهى بتصديق المكرر "(١).

وقال غيره : " إن الدعاية تستطيع فقط أن تؤثر في النفوس عن طريق التتابع والاستمرار والتنظيم، ويجب علينا أن نعيد ونكرر نفس الشيء من زوايا مختلفة "(٢).

إن بعض القلوب لا تنتبه إلا إذا كرر عليها الترغيب في الخير أكثر من مرة، وإن العقول والضمائر تتفاوت من حيث سرعة التنبيه والاستفادة، وهو ما يجب على الدعاة إلى الله التركيز عليه والاستفادة من المنهج النبوي في ذلك فعن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ :" أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟ " ثَلاَثًا، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ – وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَقَالَ – أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ»، قَالَ: فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ (٣) ومن فقه الإمام البخاري رحمه الله أنه بوب في صحيحه بابا بعنوان باب من أعاد الحديث ثلاثا ليفهم عنه(٤) وكَانَ ﷺ، إِذَا تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَعَادَهَا ثَلاثًا، حَتَّى يُفْهَمَ عَنْهُ، فَإِذَا أَتَى عَلَى قَوْمٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ، سَلَّمَ عَلَيْهِمْ ثَلاثًا(٥) ، وعن عَبْدِاللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: تَخَلَّفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ سَافَرْنَاهُ، فَأَدْرَكَنَا، وَقَدْ أَرْهَقْنَا الصَّلاةَ، صَلاةَ الْعَصْرِ، وَنَحْنُ نَتَوَضَّأُ، فَجَعَلْنَا

(١) ينظر : حضارة العرب لغوستاف لوبون ص ٣٢١ .
(٢) ينظر : دفاع عن القصة د . علي نصر ص ٤٩ .
(٣) أخرجه البخاري: كتاب الشهادات، باب ما قيل في شهادة الزور ، (١٧٢/٣) ح/ ٢٦٥٤).
(٤) أخرجه البخاري: كتاب العلم بَابُ مَنْ أَعَادَ الحَدِيثَ ثَلاَثًا لِيُفْهَمَ عَنْهُ (١/ ٣٠).
(٥) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب من أعاد الحديث ثلاثا ليفهم عنه، (١/ ٣٠) ح/ ٩٥).

نَمْسَحُ عَلَى أَرْجُلِنَا، فَنَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ: وَيْلٌ لِلأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ –، مَرَّتَيْنِ، أَوْ ثَلاثًا [١] قال أبو الزناد: إنما كان يكرر الكلام ثلاثًا، والسلام ثلاثًا إذا خشى أن لا يفهم عنه، أو لا يسمع سلامه، أو إذا أراد الإبلاغ في التعليم، أو الزجر في الموعظة. وفيه: أن الثلاث غاية ما يقع به البيان والإعذار به.[٢]

وعَنْ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ» قَالَهَا ثَلَاثًا[٣]

وهلك المتنطعون أي المتعمقون الغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم وقال النووي: فيه كراهة التقعر في الكلام بالتشدق وتكلف الفصاحة واستعمال وحشي اللغة ودقائق الإعراب في مخاطبة العوام ونحوهم اهـ. وقال غيره: المراد بالحديث الغالون في خوضهم فيما لا يعنيهم وقيل: المتعنتون في السؤال عن عويص المسائل الذي يندر وقوعها وقيل: الغالون في عبادتهم بحيث تخرج عن قوانين الشريعة ويسترسل مع الشيطان في الوسوسة[٤]

ومن البلاغة النبوية التشبيه وضرب الأمثال:

يقول الإمام ابن قيم الجوزية –رحمه الله– عن ضرب الأمثال إنها: (لتقريب المراد، وتفهيم المعنى، وإيصاله إلى ذهن السامع، وإحضاره في نفسه بصورة المثال الذي مثل به، فقد يكون أقرب إلى تعقله وفهمه وضبطه واستحضاره له باستحضار نظيره، فإن النفس تأنس بالنظائر والأشباه الأنس التام، وتنفر من الغربة والوحدة وعدم النظير. ففي الأمثال من تأنيس النفس وسرعة قبولها وانقيادها لما ضرب لها مثله من الحق، أمر لا يجحده أحد ولا ينكره، وكلما ظهرت لها الأمثال ازداد المعنى ظهوراً ووضوحاً، فالأمثال شواهد المعنى المراد، ومزكية له، فهي كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب من أعاد الحديث ثلاثا ليفهم عنه، (١/ ٣٠) ح/ ٩٦).
(٢) ينظر: فتح الباري: (١٨٩/١).
(٣) أخرجه مسلم: كتاب العلم، باب هلك المتنطعون، (٤/ ٢٠٥٥)ح/ ٢٦٧٠).
(٤) شرح النووي على مسلم: (٢٢٠/١٦).

سوقه، وهي خاصة العقل ولبه وثمرته) [1].

أخرج البخاري عن النعمان بن بشير –رضي الله عنهما– قال: قال رسول الله ﷺ: "مَثَلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ المَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا، وَنَجَوْا جَمِيعًا "[2].

إن النبي ﷺ يخبر عن سنة من سنن الله تبارك وتعالى في المجتمعات، وهي أنه حين يقع الناس في المعاصي ويتجرأون على حدود الله فإنه سيهلك المجتمع بمن فيه، ثم يربط النبي ﷺ هذه السنة وهذا القانون بقانون يراه الناس في عالم المادة، حين تخرق السفينة التي تسير على البحر فإن هذا سبب لأن يلج إليها الماء فتمتلئ فتغرق بمن فيها، ولو كان فيها طائفة لم يكن لم دور في خرق هذه السفينة.

يشكل الأفراد العنصر الأول في بناء كل أمة، وتوفر الصلات بين هؤلاء الأفراد الشرط الأول لقيام هذه الأمة برسالتها وتقديمها لعطائها الحضاري.. فروح الفريق هي الدعامة الأساسية في حمل رسالة الأمة، والعمل الجماعي من أهم ضمانات النجاح وتحقيق الأهداف، ذلك أن العمل الجماعي يضيف كل فرد في الأمة إلى غيره إضافة كيفية لا كمية، وروح الفريق توحد الأفكار والممارسات العملية من أجل تحقيق رسالة الأمة.. ومن هنا كانت الأمة التي تسير خطوات أفرادها بروح الفريق ويسود أعمالهم التعاون والتكامل، هي الأمة الجديرة بالريادة البشرية.

ولقد ربى رسول الله ﷺ الرعيل الأول من المسلمين على روح الجماعة

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين: (١٨٢/١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الشركة، باب: هل يقرع في القسمة والاستهام فيه، (٣/ ١٣٩، ح/٢٤٩٣).

وذكرهم بالمسؤولية الجماعية عن أمر هذا الدين، فكان وصفه ﷺ لدين الإسلام بالسفينة السائرة في البحر، يحاول المفسدون خرقها وإغراق أهلها، وكانت وصيته للمسلمين جميعاً بأن طريق نجاتهم إنما هو الأخذ على أيدي المفسدين

ومن روعة التصوير الفني في هذا الحديث الشريف؛ لأنه اتخذ أسلوبًا قصصيًا، يقوم على التشبيه التمثيلي، في صورة كلية متلاحمة الأجزاء والروافد والعناصر، تتنامى فيها الأحداث، وتتصاعد في وحدة عضوية، تتميز هنا بأسلوب الحوار والقصص، تستمد شخصياتها ومشاهدها وعناصرها في الواقع المحسوس، فقد شُبه الذي يطيع الله فيما أمر ونهى ويتقي حدوده فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، والذي لا يعمل بذلك، شبِّها بفريقين اقتسموا سفينة تمخر عباب البحر، وقد استقرت فرقة في أعلاها، والأخرى في أسفلها، فإن عطش من هم في أسفلها؛ فأرادوا أن يخرقوا خرقًا في نصيبهم، حتى لا يؤذوا من في أعلاها، فإن تركوهم والخرق، غرقوا جميعًا، وإن منعوهم من الخرق، وتعاونوا معهم، وأفسحوا لهم مكانًا في سماحة، نجوا جميعًا، وأنت ترى أن العناصر الواقعية هي السفينة وركابها، وما تحتوي من آلات ومعدات، والبحر وما يضم من كائنات وعوالم وما فيه، من تيارات وأمواج وعواصف ومياه، وما حدث من صراع ومساهمة واقتراع، وغير ذلك من مظاهر الطبيعة والحياة. وكما أن لله عز وجل سنناً تحكم عالم المادة ودنيا الناس، حين اكتشفها الناس استطاعوا أن يستفيدوا منها وأن يوظفوا هذه القوانين وهذه السنن توظيفا في خدمة الناس في أمور دنياهم، فمن ذلك مثلا " قانون الجاذبية " وهي قضية يراها كل الناس ويجهدون أنفسهم في التفكير فيها ولا يجهدون أنفسهم في تفسير هذا الموقف الذي يرونه والذي لا يتغير ولا يتبدل، وحين اكتشف العالم المعاصر هذا القانون استطاع أن يوظف هذا القانون وأن يستثمره فيعبر القارات ويعبر الفضاء من خلال السيطرة على هذا القانون.

وحين يكتشف العلم المعاصر المواد التي تتقبل الاحتراق، والتي لا تتقبل

الاحتراق؛ فإنه يوظف هذه السنة في تحقيق مصالح الناس في أمور دنياهم، ولهذا نرى النبي ﷺ يربط بين السنن الكونية وبين السنن المادية، بين السنن التي تحكم حياة المجتمعات ودنيا الناس وبين السنن التي تحكم عالم المادة، في حديث السفينة(١).

لقد جاء التصوير الأدبي حيويًا ورائعًا في بلاغة التعبير عن الحياة والمجتمع فيها بالسفينة، التي تمخر عباب الماء، في بحر متلاطم الأمواج والعواصف، فهي ليست قصرًا شامخًا مستقرًا على أرض ثابتة في البر، وإنما هي ألواح من الخشب، تطفو فوق سطح الماء في بحر عميق، ينتابه بين حين وآخر ريح عاصفة وأمواج هائجة متلاطمة، تتصدع لها أركان السفينة، وتتحطم جوانبها المختلفة، فيغرق من فيها جميعًا، تلك هي الحياة الغرورة كالمسرح تختفي وراء أستاره الفتن والأحداث، قال تعالى ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾(٢)

وجاءت أيضًا صورة المجتمع الإنساني بالسفينة، التي تجمع بين البَرِّ والفاجر، والصالح والطالح، وأهل الخير والحق والجمال، مع أهل الشر والباطل والسوء، فالإنسانية في صراع دائم بين الخير والشر على سبيل الفتنة والاختبار، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حي عن بينة، قال تعالى ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ (٣).

وأما روعة التصوير الفني في بلاغة التعبير عن انتصار الخير، واجتياز الفتنة، ومقاومة الأنانية والفساد والتدمير، وذلك في صورة حية

(١) موسوعة البحوث والمقالات العلمية ل علي نايف الشحوذ .

(٢) سورة أل عمران الآية :١٨٥.

(٣) سورة العنكبوت الآية :٢.

شاخصة، تستمد عناصرها من الصراع العنيف بين الفريقين على ضرورات الحياة، من الشرب لدفع العطش والهلاك؛ فإذا أحس الفريق الأسفل بالعطش، أرادوا أن يخرقوا خرقًا في أسفل السفينة؛ فإذا تركهم الفريق الأعلى وما أرادوا غرقوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم، وأفسحوا لهم أن يشربوا من أعلى السفينة متعاونين جميعًا، نجوا كلهم.

وأما روعة التصوير الأدبي في بلاغة التعبير عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حين صور الآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر بصورة إيجابية فعالة لا سلبية مدمرة في صورة بليغة رشيقة، عندما أراد من في أسفلها أن يخرقوا خرقا؛ ليشربوا بقاء على حياتهم، فيأمرهم من في أعلاها بالمعروف وينهونهم عن المنكر، لينجوا جميعًا، كما ورد في الحديث الشريف: "فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعًا" (١)

إن هذه السفينة تمثل المجتمع الإسلامي الذي توحدت عقائده وتوحد اتجاه سيره وتوحدت غاياته والمخاطر والتحديات التي تواجهه، وإن القائم في حدود الله تعالى هو تلك الفئة الصالحة الملتزمة بشرع الله الآمرة بالمعروف الناهية عن المنكر، وإن الواقعين فيها هم أولئك الذين ينتهكون حرمات الله من ترك الواجبات والوقوع في المحرمات، والحديث يقرر أن ما يتوهمه بعض الناس من خصوصياته ليس كذلك كما أن الذين احتلوا أسفل السفينة كانوا واهمين في ظنهم أن لهم الحرية الكاملة في التصرف في أرض السفينة، وذلك لأن تصرفهم فيها بخرقها يمس مصالح الذين فوقهم بل مصائرهم.

(١) التصوير النبوي للقيم الخلقية والتشريعية في الحديث الشريف (ص: ١٤٤)

المبحث الرابع

أثر البلاغة النبوية في نفوس المدعوين في الجانب السياسي .

في شهر رمضان للسنة الثامنة من الهجرة دخل النبي ﷺ مكة فاتحاً، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وقد كان من نبأ هوازن في حُنين ما كان، وغنم المسلمون غنيمة ليس لهم بمثلها عهد، ولما كان النبي ﷺ بالجعرانة قسّمَ الغنائمَ، فخصّ من دخلوا في الإسلام بأخرة – وهم أهل مكة والموسومون بمسلمة الفتح أو الطلقاء – بمزيد من الغنائم والأعطيات، يتألف بها قلوبهم علي الإسلام فوجد الأنصار في نفوسهم شيئا فبلغ ذلك رسول الله ﷺعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: (لمَّا أصابَ رسولُ اللهِ الغنائمَ يَومَ حُنَينٍ، وقسمَ للمُتألِّفينَ مِن قُرَيشٍ وسائرِ العربِ ما قسمَ، ولَم يكُن في الأنصارِ شيءٌ مِنها ، قليلٌ ولا كثيرٌ ، وجدَ هذا الحَيُّ مِن الأنصارِ في أنفسِهِم حتَّى قال قائلُهُم : لَقيَ – واللهِ – رسولُ اللهِ قَومَهُ . فمشَى سعدُ بنُ عُبادةَ إلى رسولِ اللهِ فقالَ : يا رسولَ اللهِ إنَّ هذا الحَيَّ مِن الأنصارِ وَجدوا علَيكَ في أنفسِهِم ؟ قالَ : فيمَ ؟ قالَ : فيما كانَ مِن قَسمِكَ هذهِ الغنائمِ في قَومِكَ وفي سائرِ العربِ ، ولَم يكُن فيهِم مِن ذلكَ شيءٌ . قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: فأينَ أنتَ مِن ذلكَ يا سعدُ ؟ قالَ : ما أنا إلَّا امرؤٌ مِن قَومي . فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: اجمَعْ لي قَومَكَ في هذهِ الحظيرةِ فإذا اجتمَعوا فأعلِمني ، فخرجَ سعدُ فصرخَ فيهِم فجمعَهم في تلكَ الحظيرةِ . . . حتَّى إذا لَم يبقْ مِن الأنصارِ أحدٌ إلَّا اجتمعَ لهُ أتاهُ ، فقالَ : يا رسولَ اللهِ اجتمعَ لكَ هذا الحَيُّ مِن الأنصارِ حَيثُ أمرتَني أن أجمعَهُم . فخرجَ رسولُ اللهِ ﷺ، فقامَ فيهِم خطيبًا فحمِدَ اللهَ وأثنَى علَيهِ بما هوَ أهلُهُ ، ثمَّ قالَ : يا معشرَ الأنصارِ ألَم آتِكُم ضُلَّالًا فهداكُم اللهُ ، وعالةً فأغناكُم اللهُ ، وأعداءً فألَّفَ اللهُ بينَ قلوبِكُم ؟ ؟ ؟ قالوا : بلَى ! قالَ رسولُ اللهِ : ألا تجيبونَ يا معشرَ الأنصارِ ؟ قالوا : وما نقولُ يا رسولَ اللهِ وبماذا نُجيبُكَ ؟ المَنُّ للهِ ورسولِهِ . قالَ : واللهِ لَو شِئتُم لقُلتُم فصدَقتُم وصُدِّقتُم : جئتَنا طريدًا فآوَيناكَ ، وعائلًا فآسَيناكَ ، وخائفًا

فأمَّنَّاكَ ، ومَخذولًا فنصَرناكَ . . . فقالوا : المَّنُ للهِ ورسولِهِ . فقال : أوَجَدتُم في نُفوسِكُم يا مَعشرَ الأنصارِ في لُعاعَةٍ مِن الدُّنيا تألَّفتُ بِها قَومًا أسلَموا ، ووَكَلتُكُم إلى ما قسمَ اللهُ لكُم مِن الإسلامِ ! ! أفَلا تَرضَونَ يا مَعشرَ الأنصارِ أن يذهبَ النَّاسُ إلى رِحالِهِم بالشَّاءِ والبَعيرِ وتذهَبونَ برسولِ اللهِ إلى رِحالِكُم؟، فَوَ الَّذي نَفسي بيدِهِ، لَو أنَّ النَّاسَ سَلَكوا شِعبًا وسَلَكتِ الأنصارُ شِعبًا، لسَلَكتُ شِعبَ الأنصارِ، ولَولا الهجرةُ لكُنتُ امْرَأً مِن الأنصارِ. اللَّهمَّ ارحَمْ الأنصارَ، وأبناءَ الأنصارِ، وأبناءَ أبناءِ الأنصارِ، فبكَى القَومُ حتَّى أخضَلوا لِحاهُم. وقالوا: رَضينا باللهِ رَبًّا، ورسولِهِ قسمًا، ثمَّ انصرفَ ... وتفرَّقوا ...)[1]

إلى هنا وانتهى الموقف، ولله ما أروعه من موقفٍ، وأيم الله إنني ما من مرة أطالع فيها هذا الموقف في كتب السنّة أو كتب السيرة إلا وأثار شجوني لكأنما أقرؤه لأول مرة، لما فيه من روعة وجلال تجلّ عن الوصف، ويقصر البيان عن الإفصاح عن مكنون الجَنان.

ومما يستفيده الدعاة إلى الله من بلاغة النبي –ﷺ– في هذه الخطبة ما يلي:

أولا: في قوله ﷺ "أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي لُعَاعَةٍ مِنْ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ؟" استخدام الاستفهام كأسلوب بلاغي، وهو هنا استفهام عتاب، ويقال في غير هذا الموضع بأنه: إنكاري توبيخي، لأن ما بعده قد حصل فعلا، فهم كبقية البشر تعتمل في نفوسهم النوازع، ولكنهم سرعان ما يؤوبون إلى الجادة فهم معدن الفضل والخير، ولذلك حسن أن يقال من باب التأدب أنه: استفهام عتاب.

وأما ذاك النداء المحبب إلى النفوس " يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ" فهو نداء البعيد تعظيما لشأنهم فهم أعظم من أن تلتفت نفوسهم الشريفة إلى عرض من

١ – مسند أحمد: (١٨/ ٢٥٣) ح/١١٧٣٠ ، وقال المحقق: إسناده حسن.

أعراض الدنيا الحقيرة.

ثانيا: استخدام النبي -ﷺ-التمهيد الخطابي الموجز الذي ملأ نفوس المدعوين اقتناعا وتسليما، فهو يذكرهم في ضوء سؤال أو استفهام تقريري (ألم آتكم ضلالا فهداكم الله ....الخ) وهذا أسلوب من أساليب المنهج العاطفي وهو (التذكير بالنعم) وليس أحد من الأنصار وغيرهم من المسلمين يشك في أن الرسول ﷺ هو سبب هدايتهم إلي الله ، وكذلك كونهم فقراء فأصبحوا بالغنائم وموارد الإسلام أغنياء، وكذلك كونهم كانوا أعداء دائمي التصارع والتفاعل أمر لا يتنازعون فيه لأنه كان واضحا معروفا لهم ولغيرهم ،وكون الرسول -ﷺ- كان سببا في تآلفهم وتآخيهم أمر واضح ومسلم من الجميع .

فقد كان لهذه البلاغة التمهيدية الأثر البالغ في نفوس الأنصار، واستنهاض عقولهم، وأفهامهم، واستمالة قلوبهم له -ﷺ-.

ثالثا: في قوله ﷺ: "ألا تجيبونَ يا معشرَ الأنصارِ ؟ قالوا : وما نقولُ يا رسولَ اللهِ وبماذا نُجيبُكَ ؟ المَنُّ للهِ ورسولِهِ . قالَ : واللهِ لَو شِئتُم لَقُلتُم فصدَقتُم وصُدِّقتُم : جئتَنا طريدًا فآوَيناكَ ، وعائلًا فآسَيناكَ ، وخائفًا فأمَّنَّاكَ ، ومَخذولًا فنصَرناكَ" إنه بذلك يخفض لهم جناح الذل من الرحمة، إنه يعرف قدرهم ، ويعتز بهم ، ولا يفرط في أنملة أحد منهم ، إنهم معادن نادرة من رجال الإسلام، بهذا الشعور الرباني الرقيق، وهذا الخلق النبوي الشريف، انساب في قلوبهم برقة وعذوبة، هو الذي أسرع سعيا إليهم بعاطفة الحب والإشفاق، يتحاور معهم بالتي هي أحسن، من نبع القلوب، وصفاء العقيدة، وصدق الغاية والقصد.

إنه ﷺ يدخل في قلوب أصحابه بأسلوب النبوة الصادق المتواضع، الذي لا يشوبه استعلاء ولا غرور، أسَمعت في هذا الوجود من يطفىء النار بالحب والقرب؟ أسمعَت هذه الدنيا من يقول عن نفسه: أتيتنا مكذبا فصدقناك، ومخذولا فنصرناك، وطريدا فآويناك، وعائلا فآسيناك؟

إن رسول الله ﷺ يذكر الفضل لأهله وبهذا تنمو الفضائل، وتصفو الضمائر، وتسود المحبة والمودة.

رابعا: كما استخدم ﷺ أسلوب آخر من أساليب المنهج العاطفي وهو : استثارة المشاعر والعواطف وذلك في: قوله ﷺ فو الذي نفسي بيده لولا الهجرة لكنت امرؤا من الأنصار ..)

خامسا: كسب قلوب المدعوين: وذلك بالدعاء لهم ولأبنائهم وأبناء أبنائهم (اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار) فما كان منهم إلا أن أذعنوا واستسلموا، وقالوا ودموعهم تقطر على لحاهم (رضينا برسول الله قسما وحظا).

سادسا: التشبيه البلاغي : فقد شبه النبي ﷺ الغنائم والأموال التي يتزاحمون عليها بشيء من النبات الضعيف ،وهو اللعاعة بضم اللام مشيرا إلي أن متاع الدنيا كله تافه يسير لا ينبغي أن يكون موضع التزاحم والتخاصم.

سابعا: الحكمة من إيثار بعض القبائل الأخرى على الأنصار في أنصبة الغنائم وهي (تألفت بها قوما ليسلموا) أما الأنصار فهو واثق من إسلامهم ولذلك لم يكونوا في حاجة إلي أن يتألف قلوبهم [١].

ثامنا: المنهج العقلي :حيث استنهض النبي ﷺ عقولهم، ودعاهم لإعمالها حينما استخدم معهم أسلوب المقارنة :فقد قارن كسب الأنصار في رجوعه معهم بكسب غيرهم من شياه الغنائم وألبانها ،حيث يقول في صورة السؤال الذي يجسد هذا المعني في نفوسهم :(ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا أنتم برسول الله في رحالكم؟) مما جعلهم يذعنون ويستسلمون لما فعله النبيﷺ وهكذا ينبغي علي الداعي إلي الله أن يتألف قلوب الناس بالحكمة في قوله وفعله وأن يستنهض العقول، ويستميل القلوب

(١) البلاغة النبوية وأثرها في النفوس د حسن جاد. مجلة البحوث الإسلامية ١٩ ربيع الأول ١٤٢٨هـ.

بالترغيب مرة والترهيب أخرى حتي تنجح دعوته وتؤتي ثمارها وأكلها كل حين بإذن ربها .

ويلاحظ أن الخطبة اشتملت على سمات يحتاجها الأسلوب الخطابي، ويمتاز به من غيره من الأساليب، وقد بلغت الخطبة من هذه السمات الخطابية ذروة واضحة وإذا ذهبنا نتبين أبرز هذه السمات، نجدها كما يلي:

١ – **تخصيص الخطاب:** ومما تعتمد عليه الخطبة اعتمادا أساسيا التخصيص في الخطاب، فليس الكلام موجها إلى كل سامع، وإنما هو موجه إلى الأنصار بالذات، بحيث يشعرون أن هذا الكلام خاص بهم، وموجه إليهم، وهذا أساس هام من الأسس التي يمتاز بها أسلوب الخطابة عن غيره من أساليب الأدب، فالأسلوب العادي يكفي فيه أن يكون الكلام موجها إلى أي سامع؛ أما الخطابة فلكي تكون مؤثرة ينبغي أن يشعر السامع أنه معني بهذا الكلام بصفة خاصة، وأن ما يقال موجه إليه دون غيره، أو قبل غيره على الأقل فهذا الشعور يملأ نفس السامع اهتماما وإصغاء. والخطبة تحفل بتذكير الأنصار بأنهم هم المخاطبون فابتدأت بعبارة " يا معشر الأنصار " ثم تكرر هذا التعبير. وتكرر ذكر الأنصار مرات عديدة، وكأن الخطبة تراعي أنهم كلما استغرقوا في تعميق المعاني ومتابعة الخطبة، أعادهم هذا النداء " يا معشر الأنصار " إلى التنبه والتيقظ، فضلا عن إشعارهم بأنهم المخاطبون والمعنيون.

٢ – **الأسئلة:** ومما تعتمد عليه الخطبة أيضا تكرار توجيه السؤال إلى المخاطبين فإن توجيه الأسئلة إلى السامعين يحقق للخطيب عدة أهداف، منها أن المسئول دائما في موقف أضعف من موقف السائل، من حيث إن السؤال يتطلب جوابا، وليس من المؤكد أن يحسن المسئول كل الإحسان في الإجابة، وإذا أحسن في بعضها فقد يسيء أو يقصر في بعض آخر، وضعف موقف المسئول في ظروف الخطابة يهيئ نفسه

للاستجابة، بل إلى الانقياد إذا أحسن الخطيب القياد، ومما تحققه الأسئلة من أهداف أنها توقظ عقول السامعين، وتثير حماسهم واهتمامهم للبحث عن إجابة فيما بينهم وبين أنفسهم، وهذه اليقظة يحتاجها الخطيب ليعوا كلامه وأهدافه، والواقع أن الخطيب لا ينتظر من السامعين الإجابة ولا يتوقعها بل هو الذي سيجيب عن أسئلته، لأنها أسئلة هادفة، صاغها بطريقة معينة في تسلسل وترتيب يؤدي بها عادة إلى إجابة تلقائية يريدها الخطيب.

والخطبة حافلة بالأسئلة العديدة المتنوعة، بل تكاد الأسئلة تكون أبرز ما فيها فقد استهلها النبي ﷺ «ما قالة بلغتني عنكم؟ ثم يواصل الأسئلة: «ألم آتكم ضلالا فهداكم الله؟ " ثم: " ألا تجيبونني يا معشر الأنصار »؟ " وهكذا.

٣ – **التفريغ النفسي:** ومما تعتمد عليه الخطبة تفريغ نفوس المخاطبين مما يثقلها فيما يتعلق بالموقف والموضوع، وذلك بموافقة المخاطبين في أهم ما يثير نفوسهم، فالخطبة لا تعارض المخاطبين ولا تخالفهم على طول الخط، فضلا عن أن تخطئهم من كل وجه أو تسفه موقفهم، ولو عمدت أي خطبة إلى هذا المسلك، لما وجدت طريقا واحدا مفتوحا إلى قلوب السامعين. فليس من الحكمة أن يلتزم أي خطيب أسلوب التعارض أو العداء مع المخاطبين، وإلا لأوصد قلوبهم وعقولهم دون كلامه، وإنما الحكمة أن يكتسب عواطفهم أولا بأي صورة، ثم يقودهم إلى الفكرة أو الاتجاه الذي يريد وقد يصل كسب عواطفهم إلى درجة مجاراة السامعين ولو في الخطأ، من باب الافتراض أو الجدل ثم يدور بهم الخطيب المحاور إلى الطريق المنشود، بل إن إبراهيم – عليه السلام– بلغ من الحكمة إلى درجة أن جارى سامعيه في الكفر شوطا، ليعود بهم إلى طريق الإيمان، لأنه لو عارضهم بادئ ذي بدء فسينفرون منه أما

مجاراتهم هذا الشوط فإنها تؤلف بينه وبينهم حيث أصبحوا جميعا في طريق واحد، هو طريق الكفر في بدايته، وقد صور القرآن الكريم هذا الموقف من إبراهيم فيما ساقته سورة الأنعام من قوله تعالى﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ (١).

حيث يوافقهم أولا على أن هذا الكوكب هو الإله، ليمضي بهم من هذه النقطة الكافرة إلى طريق الإيمان وهكذا.

وهذه الخطبة التي معنا تمتص كل ما في نفوس المخاطبين من غضب وموجدة، وتفرغ هذه النفوس من كل ما تضيق به بالنسبة لهذا الموقف، حتى لا يبقى جانب أو هاجس يوسوس فيها مع الخطبة أو بعدها، فيسلم لهم النبي ﷺ بأنهم أصحاب فضل عليه وعلى المسلمين ويعدد لهم كل ما في نفوسهم أو أكثر مما في نفوسهم من هذا الفضل، ويسلم لهم ضمنا بأنه أعطى أكثر مما أعطاهم لمن هم دونهم إسلاما وفضلا، ويسلم لهم ضمنا بغير هذا أيضا، وهذه الأمور التي يسلم لهم بها ويوافقهم عليها هي ما تشغل نفوسهم، وتثير مشاعرهم، ولكن هذا التسليم يطفئ كل ما في نفوسهم من حرارة وتوتر، ويجرهم إلى قياده، ولو بقي أمر ذو أهمية يقتنعون به ويخالفهم فيه الخطيب من أساسه دون إقناعهم لظلت نفوسهم في هواجسها، ولكن الخطبة تفرغ كل ما في النفوس، مسلمة به من حيث المبدأ ولكنها تقودهم مع ذلك إلى الطريق المنشود، وكأنه بقوله لهم: أنا مسلم بما تقولون فلست مكذبا لكم، ولا منكرا عليكم هذا، وإنما أنكر عليكم ألا تحاولوا فهم الحكمة من وراء ما أفعل.

٤ – **الشمول:** ومما يعتمد عليه نجاح أي خطبة شمولها واستيعابها لجوانب الموضوع، وموقف كموقف الأنصار الذي تعددت فيه العوامل والهواجس، يحتاج فيه السامعون إلى إجابة عن عدة أسئلة ماثلة في

١ – سورة الأنعام الآية : ٧٦ .

النفوس ولو بقي سؤال واحد لم تعالجه الخطبة لبقيت في النفوس بعض الهواجس والوساوس.

ومن هذه الأسئلة الماثلة في نفوس الأنصار أو نفوس كثير منهم:

لماذا أعطى الرسول أغلبية الناس من الغنائم أكثر مما أعطى الأنصار؟

وهل سيعود الرسول مع الأنصار إلى المدينة أم يستقر في مكة؟

وهل هناك علاقة بين الأنصبة والإيمان، بمعنى أن كثرة النصيب تدل على الإيمان والعكس بالعكس، أم لا توجد بينهما علاقة؟

وهل غضب الأنصار من أجل الغنائم سيترك أثرا في نفس الرسول ﷺ أم سيظل راضيا عنهم، محبا لهم؟

وقد رأينا فيما سبق كيف أن الخطبة استوعبت كل هذه الجوانب، فأجابت عنها إجابة شاملة مقنعة، ملأت نفوس الأنصار راحة واطمئنانا ورضا، حتى بلغوا من تأثرهم أن تبللت لحاهم بالدموع.

٥ – **الإقناع:** ومما يعتمد عليه نجاح الخطبة الإقناع، بمعنى أن يكون منطق الخطيب مقنعا، قوي الحجة، فمن الواضح أن عدم اقتناعهم يفقد الخطبة تأثيرها وقيمتها، حيث لا يتحقق للخطيب ما يهدف إليه من استجابة السامعين.

وفي هذه الخطبة نجد الإقناع يبلغ قمة ما يرجى منه، حيث لا يترك مجالا للتردد أو التساؤل، فضلا عن الخلاف والمعارضة.

وبعد فقد كان لبلاغته ﷺ مع أصحابه بالغ الأثر في استمالة قلوبهم يقول الرافعي رحمه الله : وبهذه الطريقة كانوا معه كأعظم فلاسفة الفن مع الفن إعجابًا وحبًا وانقيادًا وطاعة، حتى انخلعوا من عصرهم ودنياهم، وخرجوا من أحوالهم وطبائعهم، وانجذبوا إليه أشد انجذاب عرفه التاريخ، وأصبحوا مصرفين معه تصريف الحوادث لا تصريف الأشخاص، وعادت أنفسهم وكأن تأثير الأرض يلتقي فيها بتأثير السماء فيُغسل في سحب عالية فلا يكون فيها كما يريده الناس، بل كما يريد الله؛ ورجعت قلوبهم لا تلبس على دينها رأيًا ولا هوى،

وكأنما وضع لها هذا الدين حرسًا على كل سمع وعلى كل بصر؛ وبالجملة فأولئك قوم كأنما تناولهم النبي ﷺ فأفرغهم ثم ملأهم، وما انتقلوا إلى منزلتهم العالية في التاريخ إلا بعد أن نقلهم هو إلى منزلة من منازل نفسه الشريفة.[1]

وإنما جعلت هذا الحديث تحت الجانب السياسي لأن النبي ﷺ كان يمثل رأس الدولة بجانب كونه المبلغ عن الله تعالى ، ومما يستفيده الدعاة أيضا من البلاغة النبوية في هذا الحديث :

–المبادرة إلي تجلية الأمور وكشف الحقائق فإنّ الاختلاف سنّة من سنن الله في الخلق لا تتبدل ولا تتحول، فالناس ليسوا في الإيمان سواء، ولا في قوة الفهم والإدراك سواء، فما قد يكون بدهياً عند إنسان قد يستغلق فهمه عند آخر، فإذا ما غُمّ أمر علي بعض الناس، أو تعذر عليهم إدراك أبعاده ومراميه، تعيّنَ علي المُقَدّم في أمر الدين أو الدنيا أن يبادر إلي تجلية هذا الأمر، حتي لا يقع الناس في حيرة من ناحية، ويقعوا فيه هو من ناحية أخري .

– وإذا كان هذا القبيل من الأنصار – وهم من هم – إيماناً وتُقى لم يسلموا من وساوس الشيطان ، تجاه النبي ﷺ وهم يعلمون يقيناً أنه المعصوم الذي لا ينطق عن الهوي، فما بالنا بمن دونهم ودونه من البشر ؟ .

– ولم يرجئ النبي ﷺ تجلية هذا الأمر إلي أن يرجع إلي المدينة، لأن من الأمور أمور لا يجوز فيها الإرجاء، فمن يدري فقد يتنامى هذا الهاجس وهذه القالة، وينفخ فيها الشيطان حتى تكون فتنة لا يعلم إلا الله مداها .

– أنه ينبغي على من يشك في أمر ما .. لا يجد له تفسيراً واضحاً أن يلتقي بمسئوله أو رئيسه ويحاوره محاورة هادئة، ويستفسر منه عن سبب ذلك ولا يجعل للشيطان مدخلاً لتعظيم الأمور لتستمر العلاقة بين الرئيس والمرؤوس بدلاً من أن تتحطم على أبواب اختلاقات وأوهام من طرف واحد.

---

١ – السمو الروحي الأعظم والجمال الفني في البلاغة النبوية (ص: ٥٤) .

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبعد؛

فإن السنة النبوية قد حوت قمة الإعجاز مع روعة العبارة، حيث خلو ألفاظها من اللغو والعبث والزيادة والتكلف، بمدلولاتها التشريعية المباشرة وغير المباشرة، (الأوامر والنواهى الضمنية) حيث راعت أنفة العرب[١] ونفسياتهم؛ وذلك بمخاطبتها لهم بأسلوب الدلالات والمعاني والمفاهيم الضمنية بدلا من الأوامر والنواهي المباشرة في غالب تشريعاتها، ثم تركت مرونة الاستنباط، فعباراتها مع بلاغتها قابلة للتجديد وتحمل في طياتها الحضارة، ولم تحجر على العقول، قال ﷺ: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك"[٢]، فظهورهم على الحق دليل على أن منهجهم مواكب للحضارة، وفيه متسع لإسعاد العقول كلها في كل عصر ومصر، وهو ما يجب أن يأخذه الدعاة إلى الله اليوم بعين الاعتبار في تبليغ الناس دعوة الله تعالى حتى تؤتي جهودهم ثمرتها المرجوة بإذن الله تعالى.

(١) قال عمر بن الخطاب ﷺ: "إنما مثل العرب مثل جمل أَنِفٍ اتَّبَعَ قائده فلينظر قائده حيث يقود، فأما أنا فورب الكعبة لأحملنهم على الطريق". أخرجه ابن أبي شيبة: كتاب الفضائل: في فضل العرب: (٦/٤١٠، ح/٣٢٤٧٣).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ : "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم"، (٣/١٥٢٣، ح/١٩٢٠).

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- السنن لأبي داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (المتوفى: ٢٧٥هـ)، المحقق: شعَيب الأرنؤوط- محَمَّد كامِل قره بللي، الناشر: دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م.
- السنن لأبي عيسى، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، (المتوفى: ٢٧٩هـ)، المحقق: بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي – بيروت، سنة النشر: ١٩٩٨ م.
- السيرة النبوية (من البداية والنهاية لابن كثير)، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت – لبنان.
- الطبقات الكبرى، القسم المتمم لتابعي أهل المدينة ومن بعدهم، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي المعروف بابن سعد (المتوفى: ٢٣٠هـ)، المحقق: زياد محمد منصور، الناشر: مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة.
- تذكرة الدعاة للشيخ / البهي الخولي، طبعة دار الكتاب العربي، ط٣.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، المؤلف: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق

- جامع الأحاديث (ويشتمل على جمع الجوامع للسيوطى والجامع الأزهر وكنوز الحقائق للمناوى، والفتح الكبير للنبهانى)، المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، ضبط نصوصه وخرج أحاديثه: فريق من الباحثين بإشراف د على جمعة (مفتي الديار المصرية)، - دفاع عن القصة د/ علي نصر.
- دفاع عن القصة د/ علي محمد نصر، ط الأمانة أسيوط.
- دلائل توثيق السنة النبوية –دراسة مقارنة– بطرق التوثيق العالمية، رسالة دكتوراه، إعداد الدكتورة/ شاريهان حمدي عبد السلام محمد أبو عيش.
- صحيح ابن حبان لمحمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، المتوفي سنة:٣٥٤هـ، والمطبوع ضمن كتاب الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان للأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، المتوفي سنة:٧٣٩هـ، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، سنة:١٤١٧هـ،١٩٩٦م.
- صحيح ابن خزيمة لأبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي النيسابوري، المتوفي سنة ٣١١هـ، طبعة المكتب الإسلامي بيروت، الطبعة الثانية، سنة:١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.
- فتح الباري لابن حجر العسقلاني، طبعة دار الريان للتراث، الطبعة الأولى، سنة:١٤٠٧هـ، ١٩٨٦م.– الفتح الرباني أحمد البنا.
- مجموع الفتاوى، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (المتوفى: ٧٢٨هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: جمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، عام النشر: ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ هـ، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ –٢٠٠٠ م

- مسند الإمام أحمد بن حنبل، المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي.
- معجم مقاييس اللغة، المؤلف: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر
- مفاتيح الغيب = التفسير الكبير المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ)
- البلاغة النبوية وأثرها في النفوس د حسن جاد. مجلة البحوث الإسلامية ١٩ ربيع الأول ١٤٢٨هـ.
- البيان والتبيين، المؤلف: عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفى: ٢٥٥هـ)الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت
- التصوير النبوي للقيم الخلقية والتشريعية في الحديث الشريف، المؤلف: علي علي صبح، الناشر: المكتبة الأزهرية للتراث، الطبعة: الأولى: ١٤٢٣ هـ- ٢٠٠٢.
- السنن الكبرى للإمام أبى عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، المتوفي سنة:٣٠٣هـ، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، سنة:١٤١١هـ،١٩٩١م.
- صحيح البخاري، للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، المتوفي سنة:٢٥٦هـ، طبعة دار ابن كثير بيروت، الطبعة الثالثة، سنة:١٤٠٧هـ،١٩٨٧م.- مستدرك الحاكم

- صحيح الإمام مسلم، طبعة دار الالحديث بالقاهرة، الطبعة الثانية ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.
- الأدب المفرد لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، المتوفى سنة ٢٥٦هـ، طبعة دار الحديث، بالقاهرة، سنة: ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.
عام النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م. عام النشر: ١٤٢٣ هـ عدد الأجزاء: ٣.
- وحي القلم المؤلف: مصطفى صادق الرافعي (المتوفى: ١٣٥٦هـ) الناشر: دار الكتب العلمية -الطبعة: الأولى ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م .